الفَصْلُ الثَّانِي

إيران في العصر العباسي

بدأت الدعوة العباسية في خراسان وبتأييد كل من العلويين العرب والإيرانيين خاصة من أهل خراسان وما حولها، وقد اعترف المنصور بفضل الخراسانيين ومشاركتهم الكبيرة في إسقاط الخلافة الأموية خاصة أن هذه الدعوة كانت تدعو إلى إمام من آل محمد، فكان العلويون والشيعة يأملون أن يكون الحكم فيهم، وإن الإيرانيين المشاركين في الثورة كانوا يطمعون برجوع الحكم الساساني إليهم، ما أدى إلى قناعة عند المنصور بضرورة قتل أبومسلم الخرساني بعد أن أدى عمله إلى إسقاط الأمويين من جهة وخوف العباسيين من هذه الزعامة الجديدة. وتخلص المنصور من نفوذ أبي سلمة الخلال، وهو إيراني كان يقود الثورة العباسية في الكوفة سنة ١٢٣هـ غير أن نفوذ الإيرانيين من الفرس والترك ازداد في هذا العصر، وأخذ الإيرانيون حريتهم إلى درجة تطاولوا فيها بعض الأحيان بالانتقاص من العرب وأنسابهم، وظهر هذا في شعر كثير من شعراء العربية من أصول إيرانية كأبي نواس، وكان للإيرانيين حضور في البلاط العباسي، وشاعت في المجتمع العادات الفارسية ليس فقط من أفكار بل في اللباس والطعام وجميع مظاهر الحضارة من أدبٍ وفنونٍ.

ودراسة الجغرافية التاريخية لإيران كانت موضع عناية الجغرافيين والمؤرخين العرب الذين وصفوا أقاليمها وأنهارها وجبالها، ووصفوا أحوال الناس ونشاطهم التجاري، وهذه الدراسة تخرجنا عن الهدف المهم في هذا الكتاب، ولكن نشير إلى ما جمعه المستشرق الإيطالي كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) الذي احتوى على تفاصيل كثيرة متعلقة بجغرافية وتاريخ تلك الأقاليم في

عهد الإمبراطورية الإسلامية[١] ولكن من أهم المظاهر التي كان لها علاقة بالفتح الإسلامي لإيران وشيوع مذهب التشيع، هو ظهور طبقة الموالي في المجتمع وشيوع الشعوبية وانتشارها، والظاهرة الثالثة هي قيام بعض الثورات الإيرانية والحركات الفكرية والمذهبية المارقة عن الدين الإسلامي، وباعتبار هذهِ الظواهر قد جاءت من إيران لأن لها علاقة كبيرة بنشأة التشيع في إيران، فمن المهم بحثها كما يلي:

الموالي:

الموالي ونظام الموالاة:

إن الفاتحين المسلمين كانوا يخيرون أهل البلاد المفتوحة إما الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية والبقاء على ديانتهم، فهم أهل ذمة أو الحرب، فيكونون أرقاء عبيدًا بعد النصر، وأصل الموالاة كان في الجاهلية، ثم تطور في عصر الراشدين، واستقر على معنى يطلق على المسلمين من غير الأصول العربية، وأريد بهذا النظام أن يكون الموالي أنصارًا للعرب وحلفاءهم ضد مخالفيهم، فقد أعطى للكلمة مفهومًا عامًّا يشمل الموالي الأرقاء، وهم غير المسلمين الذين كانوا رقيقًا بسبب الحروب التي قامت، ورفض أهلها الإسلام، وفتحت بلادهم عنوة، وهذا هو المصدر الوحيد للرق، وهو محل البيع والعتق وبعض الموالي لم يسترقوا، وتركوا على ديانتهم شرط أن يدفعوا الجزية والخراج وهم أهل الذمة، وقد يكون أصل الموالي من الرقيق الذي تحرر عن طريق المكاتبة أو الإحسان أو الزواج بالنسبة إلى المرأة ذات الولد، ويتم الولاء بعقد مولاة بين عربي ومسلم غير عربي دخل الإسلام دون حرب، وهناك موالٍ من غير العرب دخلوا الإسلام،

---

(١) د. علي عبدالرحمن العمرو: أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول، ط٤، ص٦٨، شركة العبيكان، الرياض، ١٩٩٢م.

كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركس عواد، ص١٤ وما بعدها، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٤م.

ولم يحاربوا المسلمين، ولم يدخلوا بعقد ولاء، هؤلاء لا ارتباط لهم بأحد، وكان أكثر الموالي يتخلون عن أسمائهم الأعجمية، ويتخذون أسماء عربية غالبًا أو أسماء سادتهم. وقد كثر ازدياد الموالي بازدياد الفتوحات الإسلامية، وكان من شأن هذا النظام امتزاج الموالي بالمجتمع وتحويلهم إلى طاقة منتجة خاصة في المجالات التي لا يرغب العرب في العمل بها لأي سبب كان، حتى أهل الذمة الذين اختاروا البقاء في البداية على ديانتهم، ودفعوا الجزية والخراج ربما تراهم يقبلون على اعتناق الإسلام، تخلصًا من دفع الجزية أو الخراج.

وقد شعر الموالي بمنافع هذا النظام الإسلامي الشرعي الذي يساويهم بالعرب في أخوة إسلامية يتمتعون فيها بأن يلحقوا بجيوش الفتح، ويسجلوا في ديوان الجند، لأخذ العطاء. وفي هذا استقرار نفسي عظيم يزول معه الشعور بين الغالب والمغلوب إلى حد كبير، ولهذا أقبلوا على تعلم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم، واشتغلوا بالعلوم الشرعية والحديث النبوي وأدت المساجد دورًا كبيرًا في تعلم الموالي العلوم الإسلامية واندماجهم في المجتمع.

غير أن كثيرًا من الموالي ظل حاقدًا على الإسلام والمسلمين، فإن كان قد أسلم فإنما إسلامه شكلي فقط كي يجنبه من دفع الجزية أو الخراج، ويمكنه من التستر بالإسلام والتظاهر به للقيام بأغراضه التي ظل متعلقًا بها ليس من السهل على الموالي أصحاب البلاد المفتوحة التخلي عن عاداتهم ودياناتهم وحنينهم إلى تاريخهم القديم بين ليلة وضحاها، بل وراء ذلك معاناة نفسية كبيرة، فعندما تتاح الفرصة لمثل هذه المشاعر نراها تستغل الظروف لإظهار مكنونات نفوسها بشتى الطرق.

دور الموالي في عصر الراشدين:

تمتع الموالي المسلمون في عصر الرسول ﷺ وعصر الراشدين بالمساواة مع العرب، واشتركوا معهم في الأخوة، وإن كانوا قلة، غير أن مقتل

الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غيلة على يد أبي لؤلؤة فيروز المجوسي من نهاوند جعل المسلمين العرب ينزلون كل مولى في منزلته التي يستحقها.

إن الموالي من أصل الرق يكونون عادة في خدمة سادتهم وهم تبع لهم وغالبًا ما يعتنقون مذاهب سادتهم أو ينفذونها لهم، وقد رأينا في استعراض مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اشتراك كثير من الموالي في الثورة عليه، أغلبهم كانوا تبعًا لسادتهم، كعبيد أهل المدينة كانوا ضمن من شغب على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١] ويحتج علي بن أبي طالب على طلحة والزبير اللذين يطالبانه بدم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن هم في جيشه، فيقول: كيف أصنع بقوم يملكوننا، ولا نملكهم ها هم هؤلاء ثارت معهم عبدانكم، وقد أدرك علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الحقيقة، فأراد تقليل سيطرة الموالي بعد بيعته، فنادى بالناس: برأت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه[٢].

إن أعداد الموالي كانت كبيرة في جيش معاوية وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكانت تقدر بعدد العرب، ولكن كانوا تبعًا لسادتهم في الولاء السياسي عمومًا، فكان بعضهم يحمل راية الحرب، ففي صفين عقد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الراية لمولاه قنبر، وكان حاجبه، وعقدها عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمولاه مروان.

دور الموالي ضد العرب:

مقدمة في فتح المسلمين لبلاد فارس:

في السنة السادسة من الهجرة بعث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس برسالة يدعوه فيها إلى الإسلام، ولكن كسرى حينما قابل السهمي، وقرأ الرسالة مزقها، وكتب إلى عامله على

(١) يعترف أبوحفصة يزيد مولى بن الحكم أنه هو الذي أشعل فتنة قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: أنا والله أنشب القتال بين الناس، رميت من فوق الدار رجلًا من أسلم، فقتلته، فنشب القتال، ثم نزلت، فاقتتل الناس على الباب... (انظر الطبري: تاريخ الطبري، ج٤، ص٤٣٧، ٣٨٠، ٣٧٩).

(٢) الطبري: المرجع السابق، ج٤، ص٥٠٥-٥٦٣.

اليمن أن يتولى أمر محمد ﷺ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «**مزق الله ملكه**» وقد كانت دولة الفرس تنخر فيها عوامل الضعف والتفكك حتى وصل الأمر إلى قيام شيرويه بن الملك كسرى أنوشروان بقتل أبيه والاستلاء على الحكم، وفي خلافة أبي بكر رضي الله عنه كتب المثنى بن حارثة الشيباني إلى الخليفة يطلب منه أن يأذن بمناوشة الفرس هو وسويد بن قطنة العجلي، وطلب الرفد ليواصل الجهاد، وكانت الردة قد أخمدت لتوها في اليمامة على يد خالد بن الوليد حيث أمره أبوبكر باللحاق بالمثنى، وتقابل الجيش الإسلامي بالجيش الفارسي في كاظمة، وبارز هرمز قائد الفرس خالدًا، فقتله خالد، فانهزم الفرس، واستمر خالد يخضع البلاد، ويتقدم خلفه المثنى بن حارثة، وحينما ذهب خالد بجيشه إلى الشام ليمد أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قام المثنى بن حارثة بمعارك عدة ضد الفرس أشهرها معركة بابل سنة ١٣هـ حيث انتصر عليهم.

وفي عهد الخليفة عمر رضي الله عنه، سار أبوعبيدة بن مسعود الثقفي بأمر من الخليفة إلى العراق انضم إلى المثنى، وفي هذا الوقت مات شيرويه ملك فارس، وقامت ابنته بوران مكانه، فحصلت معارك صغيرة انتصر فيها المسلمون ما شجع أبا عبيدة على عمل جسر على الفرات لعبور الجيش ناحية الفرس، فعبروا، ودارت معركة كبيرة استخدم فيها الفرس الفيلة واستشهد أبوعبيدة، فخلفه أخوه الحكم، فاستشهد أيضًا، فخلفه ابنه المدعو بالخير، فاستشهد هو الآخر، فتولى القيادة المثنى بن حارثة، وطلب من الجيش الانسحاب وعبور الجسر إلى الجهة الأخرى بعد أن قتل منهم الكثير، فاغتم لذلك الخليفة عمر رضي الله عنه، وأرسل إليهم بالمدد الكبير، فقد كان الفرس عشرة أضعاف المسلمين أو أكثر، وبسبب هزائم الفرس المتلاحقة قاموا بتنصيب يزدجرد على الملك، وهو ابن كسرى ويبلغ عشرين سنة، ونظموا صفوفهم، فكتب المثنى بذلك يخبر عمر، وطلب المدد، فأرسل له جيشًا قوامه ثمانية آلاف مقاتل بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فاختط سعد

البصرة، وعسكر فيها، وتوفي المثنى متأثرًا بجراحه يوم الجسر، وسار سعد إلى القادسية حيث دارت معركة فاصلة سنة ١٤هـ، وكان عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل، بينما الفرس مئة وعشرون ألفًا، ولكن جيش المسلمين تعزز حالًا بعدد جاءهم من الشام، فبلغوا أربعة وثلاثين ألفًا، واستمرت المعركة أربعة أيام قتل فيها رستم قائد الفرس، وهزموا شر هزيمة، فلاذوا بالمدائن، ولكنهم أخرجوا منها بعد حصار دام شهرًا ونصف الشهر، وعادت جموع الفرس مرةً أخرى، واجتمعوا في جلولا بأعداد عظيمة، ولكنهم هزموا أيضًا بجيش صغير قوامه عشرة آلاف مقاتل بقيادة هاشم ابن عتبة، وانتهى فتح العراق، وهرب الفرس إلى بلادهم، ولكن سعدًا تبعهم، فهرب يزدجرد إلى أصبهان، وعسكر المسلمون في حلوان وقرماسين. ونزلت هذه الهزائم غير المتوقعة على الفرس كالصاعقة لا يعلمون ماذا يعملون، فكاتب ملكهم يزدجرد إلى ملوك وأمراء النواحي جهة السند وخراسان، فاتحدوا جميعًا على حرب المسلمين، وتجمعت الجيوش الفارسية في نهاوند بقيادة الفيرزان، وكان عددهم مئة وخمسين ألفًا. فاستشار سعد عمر، فاستقر رأيهم على تجميع المسلمين وطلب المدد، فأرسل عمر بالمدد الذي تجمع تحت قيادة النعمان بن مقرن المزني، وكان فيهم بعض كبار الصحابة منهم حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عمر وجرير بن عبدالله البجلي والمغيرة ابن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فبلغ جيش المسلمين ثلاثين ألف مقاتل التحموا مع الفرس أيامًا عدة مع أشرس معركة استشهد فيها من المسلمين النعمان بن مقرن، ولكن جيشه صمد ببطولة نادرة، وفتحوا نهاوند، وهزم الفرس سنة ٢١هـ، وهرب ملكهم منها، فكانت هذه المعركة حقًّا كما سميت فتح الفتوح، واستكمل المسلمون بعدها فتح الأقاليم المجاورة، ففتحوا دينور وأصبهان وأذربيجان والري وهمذان وجرجان وغيرها، وهرب يزدجرد إلى خرسان، واتخذ مرو مقرًّا له، وبنى فيها بيتًا لعبادة النار، واجتمع له الفرس، ولكن الأحنف بن قيس (وهو والي علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) غزا خراسان سنة ٢٢هـ، وطهرها من فلول الفرس خاصة مرو حيث هرب منها

يزدجرد عابرًا، ثم فتح المسلمون هراة، فكاتب يزدجرد ملك الصين وخاقان الترك يستعديهم على المسلمين، وكان قد عسكر في بلخ.

وتمسك المسلمون بالمناطق المفتوحة حتى أتاهم المدد من الكوفة، فتقدم قائد المسلمين نحو بلخ، ففتحها، فانهزم يزدجرد عابرًا نهر جيحون حتى وصله المدد من خاقان الترك، فسار بهم إلى خراسان، ونزل بلخ، وكان الأحنف في مرو والروز، فتبارز فرسان ثلاثة من أشد خاقان الترك، فقتلهم الأحنف بن قيس واحدًا بعد الآخر، فلما شاهد الخاقان ذلك تشاءم، ولم يدخل المعركة ضد المسلمين، وعاد بجيشه إلى بلاده، وأما يزدجرد فأشار عليه قومه بمصالحة المسلمين، ولكنه رفض، وهرب إلى مدينة فرغانة عاصمة خاقان الترك، وهدأت فارس خاصة بعد مصالحة أهل خراسان الأحنف بن قيس، ثم استكمل المسلمون فتح بقية أقاليم فارس مثل إصطخر وكرمان وسجستان ومكران...).

وفي خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاد للفرس الأمل في استرجاع ملكهم، وعاد يزدجرد يكاتب رؤساء فارس في الأقاليم للثورة على المسلمين، فاستجاب له أهل خراسان، وساروا إلى الجيش الإسلامي، فتقدم يزدجرد، ونزل على مرو، وتجمع حوله قوة كبيرة من الفرس، ولكن المسلمين استمروا في انتصاراتهم، وفي هذه الحركة أخمدوا هذه الثورة، وقتلوا يزدجرد في مخبأ له في طاحونة في مرو، وكان ذلك سنة ٣١هـ وفيها خضعت جميع أقاليم الإمبراطورية الفارسية للمسلمين، فكان هذا العمل يشبه الحلم والخيال في الموازين المادية والبشرية، ولكنها سنة الله وكلمته في ذهاب أمم وقيام أخرى. والسؤال الذي يهمنا في الوصول إليه من هذه المقدمة هو:

هل دخول هذه الأعداد العظيمة من الفرس إلى الإسلام تلك المدة كان قهرًا أم عن قناعة منهم؟

لا شك أن هذه الحروب الطويلة والمعارك الكبيرة ما كان لعموم الفرس ليدخلوا الإسلام لولا قناعتهم بالإسلام ومبادئه التي لم تتكون لهم في ليلة وضحاها، ولكن احتاجت إلى وقت طويل ليتخلوا عن ديانتهم القديمة، وما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، وأن يدخلوا في دين الفاتحين عن قناعة منهم، وهذا لا يتهيأ إلا بطول تعلم مبادئ الإسلام والاحتكاك برجاله وعلمائه، وهو الآخر يحتاج إلى مدة طويلة، فإذا أضفنا إلى هذا حقيقة تاريخية بأن «الجيوش الإسلامية العربية التي جاءت إلى فارس أغلبها حديثة العهد بالإسلام ومبادئه، والعلماء والقراء والقيادات العسكرية فيهم إنما هي الصفوة، وأما الأكثرية فلا تزال تسير على النظام القبلي في التنظيم والطاعة والولاء...».

«هؤلاء المنتصرون جلبوا معهم إلى بلادهم ليس الغنائم والأموال فقط، وإنما جلبوا معهم ما غنموه من الموالي والعبيد من الفرس لخدمتهم وزرع أراضيهم التي غنموها...».

فهل يعقل أن يخلص هؤلاء العبيد والموالي إلى سادتهم بسرعة أم تبقى في نفوس كثير منهم مشاعر القهر والخذلان والأسى على آبائهم الذين قضوا في تلك الحروب الطاحنة والمحاولات الفاشلة، فأي مشاعر يمكن أن يكنها الفرس المغلوبون على أمرهم تجاه العرب المسلمين.

حقًّا إن قلة منهم حسن إسلامهم، وأخلصوا للعرب بسرعة، لكنهم قلة لا يتأسس على عددهم نتيجة عامة إنما النتيجة العامة تستخلص من مشاعر الغالبية. ومثال هذه المشاعر هو ما كان يكنه أبولؤلؤة المجوسي، فقد كان جنديًّا فارسيًّا أسره المسلمون في معركة نهاوند، وأصبح من موالي المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدم به إلى المدينة المنورة، وكان يحسن صناعة السيوف والخناجر، وهو الذي قام بطعن الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتشجيع وتدبير من الهرمزان القائد الفارسي الذي استقدم أسيرًا إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المدينة، فأكرمه، وأعلن إسلامه.

إن مشاعر الفرس المعادية للعرب والمسلمين عند الفتح كانت مشاعر المقهورين، استمرت في السر والخفاء، ولكنها تظهر في أي مناسبة تكون سانحة لهم، ولا يستبعد مشاركة اليهود الذين طردوا من المدينة المنورة في دفع أبولؤلؤة لهذا العمل، فقد ذكرت بعض المصادر التاريخية قول كعب الأحبار لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل مقتله بقليل: «إني أرى مقتلك في التوراة» في مقابل ذلك حاول العرب المسلمون إدماجهم في أعمال الدولة والاستفادة منهم، ففي سنة ٤٢هـ نقل معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عددًا من الموالي الفرس إلى المدن الساحلية في الشام، واستعمل كثير من الولاة بعض الموالي كتابًا خاصة فيما يتعلق بالخراج، فاستخدم الكثير منهم في ديوان الخراج والجباية. وذهب عبيدالله بن زياد إلى اتخاذ بعض الموالي جيشًا سماه المحاربة. وعين بعضهم ولاة كأبي المهاجر دينار الذي كان واليًا على إفريقيا في عهد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعين الحجاج صالح بن عبدالرحمن على رأس ديوان العراق، وعين محمد بن يزيد مولى قريش على المغرب في عهد سليمان بن عبدالملك، وهذه كلها مجرد أمثلة باعتبار العرب منتصرين، فلم يكونوا يضمرون للموالي غير العطف وتفهم مشاعرهم، وتُركوا مع دفع الجزية على دينهم القديم، صحيح قد حصل ضدهم العسف من بعض الولاة كالحجاج الذي أرغمهم على دفع الجزية حتى من دخل منهم أخيرًا في الإسلام على دعوى أنهم لم يفعلوا ذلك إلا هروبًا من دفع الجزية المكتوبة، ولكن عمر بن عبدالعزيز قد أبطل مثل هذه الأعمال ما دفع كثيرًا من الموالي إلى سكن الحجاز اقترابًا من العدالة وهروبًا من الفتن التي كانت تظهر بين فترة وأخرى في بلاد فارس.

ويخالف هذا الوضع أن كثيرًا من الموالي الفرس ممن حسن إسلامهم، وصفت سريرته لدين الله تعالى، فانصرف إلى العلم والتحصيل، فنال بذلك الدرجات العليا، ورفض الاشتغال بالسياسية أو حتى منصب القضاء كما هو حال أبي حنيفة النعمان بن ثابت وغيره كثير في رجال الحديث والمحدثين الذين

جمعوا المصنفات، فأدوا بذلك خدمة جليلة للإسلام والمسلمين في وقت كان أكثر العرب منشغلين بأمور السياسة والمال، فالباحث المنصف يجب أن يضع الجميع في ميزان الحق والعدل للحكم عليهم من خلاله، ولكن جمهرة الموالي الفرس وغالبيتهم في القرن الأول والثاني الهجري لم يكونوا صادقين في ولائهم للعرب والمسلمين عمومًا بسبب اختلاف الثقافة والمصلحة السياسية والدنيوية، ولهذا نرى الموالي يشتركون في كل حركة تقوم ضد الدولة الإسلامية تحت أي شعار يكون، فكانت حركاتهم في بداية الأمر حركات غير مباشرة أو عملهم سرًّا في البداية؛ وذلك لضعفهم.